

العالم العربي

في رحلات الهنود

بقلم : الدكتور محمد اجتباء الندوي

الرحلة من طبيعة الإنسان التي تتشوق وتتلهف بزيارة أماكن ، وبلاد نائية بعيدة لا يعرف عنها شيئاً ، ويريد أن يزورها ويتمتع بأنواع وأقسام مختلفة متنوعة مما لا يتصور أن يجدها ويراهها في موطنه وفي المكان الذي يعيش فيه ، وكثيراً ما يسأم ويعمل في بيت واحد ، وبلد منزو ، وبحياة منزوية منكشمة ، فيخترق هذه الجدران ليتنفس في هواء طلق ، وجو هادئ جميل ، ويرى أشياء جميلة جذابة يتخفف بها من آلامه وأحزانه ، ويتمتع بنعمات الحياة ، وترانيمها ، وأناشيد الطبيعة وأغانيها ، وكثيراً ما كانت هذه الرحلات وسائل نجاح وفوز وتوفيق ومدعاة ظفر وعلو ورفعة ، ووسائل ثروة وغناء وصيت وشهرة فائقة ، وكذلك كانت الرحلة من أسباب علم ومعرفة وتزكية وتربية وإحسان ، فيعود الإنسان بكل هذه الرحلات بمنافع علمية وبصيرة نافذة وحكمة بالغة ، ومعرفة واسعة وثقافة عالية ، وتجارب واسعة عظيمة ضخمة ، وإن سجل هذه الانطباعات التي شاهدها في رحلاته تلك ينتفع بها ، ويفيد منها الأجيال والناشئة الآتية ، كما نرى في التاريخ رحلات سجلت وطبعت ، واستفاد منها أناس لا يعدون ولا يحصون ، فيحكى لنا التاريخ منذ أن عرف التاريخ بأن مغامراً خرج بسفينته الشراعية ، وركب البحار ، وهبط على دنيا جديدة ، لم يقف عليها

قبله إنسان ولا ذور روح ، وكذلك صار صلة بين بلد وبلد ، وإنسان وإنسان ، فمنذ أن اطلع المؤرخون على رحلة "هيرودتس" إلى أن تقدم الإنسان في عصرنا بوسائل حديثة ومواصلات جديدة متجددة برحلات دولية متواصلة في كل حين وأن ، فأنتج وأثر ، وأفاد وأبرز .

لست هنا بصدد إحصاء رحلات ذكرت في التاريخ ، ولست أريد أيضاً أن أتحدث عن الرحالة والسُّيَّاح الذين خرجوا من الجزيرة العربية إلى العالم ، أو من الهند إلى الجزيرة العربية أو إلى عالم جديد ، ولكنني أشير إلى السفن الشراعية والبواخر التي كانت تجوب من الشرق إلى الغرب ، وتعبّر البحار والأنهار ، فكانت تمر بالبلاد العربية والهند ، وقلما حدث أنه لم يوجد على سفينة أو باخرة ملاح عربي يقود سفينة ، وينير الطرق و يهدي السبل في ظلمات المحيط الهندي أو غيره ، وبذلك نجد صلوات وثيقة متينة بين الهند والعرب ، كما عرفنا نحن من كتاب العلامة السيد سليمان الندوي وأمثاله .

وكذلك الرحلات الشهيرة التي ذكرت بدقة و وضوح المعالم والحوادث التي مرت بها في الآفاق ، وهي رحلة ابن جبیر ، ورحلة ابن بطوطة ، ولو أنهما ليسا من مواطني بلادنا الهند ، ولكننا لا نستطيع أن نغض الطرف عما أبانا عن تجارب ومعلومات عن البلاد التي شاهداها ، وهما كانا نموذجين مثاليين للسُّيَّاح والمسافرين والرحالة الآخرين ، أما قصتنا في رحلات الكتاب المنود الذين تصدوا للشئون العربية خلال زيارتهم لها في البلاد العربية ، فلا توجد إلا في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر ، وكل هذه الرحلات تشتمل على نوعين اثنين ، أولهما عن الرحلة من الهند إلى إنجلترا ، والرحلة الثانية إلى الحج ، وتشتمل هذه الرحلة أحياناً على البلاد العربية الأخرى ، أشهرهما رحلة الشيخ عبد

الرحمن الأمرتسري باسم : "سفر نامه بلاد إسلامية" ١٨٩٨ م ، ورحلة العلامة شبلي النعماني ١٣٠٩ هـ-الموافق ١٨٩٢ م ، باسم : "سفر نامه روم ومصر وشام" ، ورحلة الخواجه حسن النظامي باسم : "سفر نامه مصر وشام وحجاز" ، والرحلة الأخيرة التي أحب أن أنوه بها ، وهي رحلة الشيخ أبي الحسن علي الندوي رحمه الله في عام ١٩٥١ م ، باسم : "مذكرات سائح في الشرق العربي" ، و "أسبوعان في المغرب الأقصى" ، و "من كابل إلى نهر يرموك" ، و "نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان" ، و "الطريق إلى المدينة" ، و "أسبوعان في تركيا" ، وتوجد هناك رحلات تحتوي على معلومات موجزة عن البلاد العربية نذكرها بأسمائها ، وهي للقاضي ولي محمد بعام ١٩٢٧ م ، باسم : "سفر نامه أندلس" ، و "المغرب الأقصى" ، و "سفر نامه مصر" ، وقد كان مؤرخاً فتطرق بتاريخ هذه البلدان ، و "سفر نامه شيخ الهند" (محمود حسن) بقلم الشيخ حسين أحمد المدني ، و "سفر نامه حجاز" ، و "سفر نامه عراق" للسيدة نشاط النساء ، زوجة الزعيم الهندي والشاعر الأردني الكبير مولانا حسرت موهاني بعواطف نسائية أدبية بليغة ، وتوجد رحلة علمية أدبية مفيدة للشيخ مسعود عالم الندوي ، باسم : "ديار عرب مين" وغير هذه الرحلات أو المذكرات أو اليوميات التي تحتوي على الزيارة ، والرحلة إلى الحج توجد منها في اللغة الفارسية رحلتان للعالمين الكبيرين ، وهما الشاه عبد الحق المحدث الدهلوي ، كانت في عام ١٥٨٩ م ، باسم : "جذب القلوب إلى ديار المحبوب" ، وثانيتها لشيوخ الإسلام ولي الله الدهلوي بعام ١٧٢٨ م باسم : "فيوض الحرمين" ، ثم كانت رحلة الحج الشهيرة في اللغة العربية للأمير سيد صديق حسن خان عام ١٨٦٨ م ، باسم : "رحلة الصديق إلى البيت العتيق" ، ثم تتابعت الرحلات للحج ، وخاصة بعد استقلال البلاد ، وبعضها ذات أهمية كبيرة ،

تذكر على سبيل المثال : "سفر نامه حج" باسم : "سوانح الحرمين" للشيخ رفيع الدين المرادآبادي ، وللشاعر الكبير نواب مصطفى خان شيفته عام ١٨٣٩م باسم : "ترغيب المسالك إلى أحسن الممالك" ، ورحلة الأميرة سلطان جهان بيغم ، أميرة بوفال ، باسم : "سفر نامه حجاز" ، ورحلة الشيخ عبد الماجد الدرايبادي عام ١٩٢٩م ، باسم : "سفر حجاز" ، و "سفر نامه حجاز" للشيخ غلام رسول مبر ، وسجل أحاديث رحلته إلى أرض القرآن الشيخ أبو الأعلى المودودي ، باسم : "سفر نامه أرض القرآن" ، وأخيراً : "كهر سه بيت الله تك" امن بيتي إلى بيت الله للمفكر الإسلامي الكبير الشيخ أبي الحسن علي الندوي .

إنها نظرة عابرة سريعة على الرحلات التي قام بها الكتاب المنورد للعالم العربي ومعظمها كما رأينا ترتبط بالحج وزيارة الحرمين الشريفين بقدسيتهما وربانيتها وروحانيتها ، ونعثر على بعض رحلات منها تعوج بنا إلى بلاد عربية أخرى كمصر والشام وفلسطين ، وأحياناً إلى العراق والسودان والمغرب العربي ، وهي قليلة جداً ، اللهم إلا ما نجد في عصرنا الأخير المعاصر من رحلات سماحة شيخنا أبي الحسن علي الندوي الذي ساح وسافر وسار إلى البلاد العربية كلها ، وكانت رحلاته كلها للعلم والتعليم والمعرفة والثقافة والدعوة والإصلاح ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما ذكرنا أعلاه ، وإليكم بعض المقتطفات كنماذج التعبير عن الشؤون العامة للبلاد العربية .

فيقول العلامة شبلي النعماني في رحلته عن مصر : "إنني مع الأسف الشديد شعرت في رحلتي هذه كلها شقاء المسلمين برؤية جامعة الأزهر ، وهي جامعة يجتمع فيها المسلمون من كل بقعة وناحية ، ميزانيتها السنوية لا تقل عن ثلاثمائة ألف ، وعدد طلابها يتجاوز عن اثني عشر ألف ،

يرجى من تعليمهم وتربيتهم مستقبل زاهر وضاء لهم وللأمة كلها ، ولكن بما
يوسف له أنها فضلاً عن أن تأتي بنتائج مقيمة مثمرة تلوح بضياح وخسارة
كبيرة ، إن طرق تعليمها وإعاشتها تثبط المهم وتبث في القلوب الملل والسامة
والجبن والخور ، وتدمر الخصال النبيلة الكريمة فيهم" . [ص/١٢٣]

يفادر العلامة شبلي النعماني مصر إلى بلاد الشام ، ويدخل

مدينتها الشهيرة بيروت ، فيعجب بنهضتها العلمية ، فيقول :

"أخذت بيروت تتقدم إلى الرقي العلمي والنهضة الثقافية منذ زمن
يسير جداً ، ولكنها قطعت أشواطاً سريعة بحيث بلغت إلى درجة لا
يضاهيها في البلاد الإسلامية إلا قسطنطينية ، وتمتاز وتتفوق عليها في بعض
خصائص ومميزات من أن توجد فيها" . [ص/٩٨]

وقد سافر الخواجه حسن النظامي إلى المدينة المنورة ، ولكنه زار
مصر قبل أن يتشرف بها ، وحينما نزل من الباخرة لفت أنظاره أطفال من
مدينة "سويس" يتحدثون بلهجة عربية ، فيهتز ويغرب ، ويتذكر تلك الأيام
التي كانت هذه اللغة الكريمة لغة العالم ، وكان آباء هؤلاء الأطفال سادة
الدنيا ، ويريد أن ينتقل من هذه المدينة إلى القاهرة ، فيركب عربة يسير
بسانقها إلى الشارع ، فإذا به يرفع صوته ، ويقول : (يمينك) وينادي ولداً
يعترض طريقه (يا ولد!) ، وتظهر فتاة تعبر الشارع فيخاطبها (يا بنت!) ،
فأشعر في قلبي فرحة وبهجة تغمر جسدي كله وهو يتصايح : ما أحلى اللغة ،
وما أطيب الربى ، ذهبنا إلى مكتب البريد ، فرأينا مديره مسلماً مصرياً
يهتم بشئون المسلمين ، ويتغنى بأمجادهم ويرحب بنا بترحيب أخوي كريم ،
يتشرف الخواجه حسن النظامي بالدخول إلى المدينة المنورة ، ويوجه
الروضة الطاهرة ، فلسانه ينطلق بكلمات حلوة ساحرة :

"ما أعظم سعادة تلك العيون التي تتشرف برؤية الروضة الطاهرة ،
وما أحلى تلك الأيدي التي تتشرف بلمس البوابة النورانية الكريمة ، وما

أعذب ذلك اللسان الذي يخاطب تلك الشخصية النبوية العظيمة الكريمة التي تصاب هناك السنة العالم باليكم والعقم".
[ص/١٧٠]

يشرفني أن أقتطف كلمة في رحلة شيخ الهند مولانا محمود حسن سجلها شيخ الإسلام مولانا حسين أحمد المدني الذي كان يرافقه في رحلته هذه بريشة قلمه السيل ، يسلط أضواء على نهضة مصر وحضارتها ، فيقول :

"مصر بلد زراعي خصب ، يسقي أرضها نهر النيل جرياً بأواسط إفريقيا ، وينابيع السودان العذبة الحلوة ، وبحيراتها الصافية الشفافة ، ليست مساحة مصر كبيرة واسعة ، ولكن بأراضيها الخضراء وأهميتها الجغرافية تحتل مكانة رفيعة معتبرة يجري بشمالها البحر الأبيض المتوسط وبشرقها البحر الأحمر ، وعمومها هذا تمت بصلة خاصة بالبلاد الأوربية الجنوبية وبالمدن الآسيوية الغربية ، فتهيأ لها الاتصالات والمواصلات من كل بلد ومصر ، وبذلك تنهض وتتقدم وتسير قدماً إلى الأمام". [ص/٥٩]

أعتقد أيها السادة الكرام ! أن حديثي عن الرحلة في هذه المقالة القصيرة قد طال وأخشى أن يدب إليكم الملل والسآمة ، فأحب أن أوجز وأقتبس بكلمات وضيئة نيرة لسائح جاب البلاد وطاف ، وتحدث وتكلم ودعا ، وحاضر وخاطب الناس وكلم الملوك والأمراء ، وأخلص وأدى الأمانة ، ونصح الأمة العربية كما نصح أمته هنا في بلادنا الهند ، ولا أقدر أن أتحدث عن كل ما نثر من غرر ودرر في كل بلد حل فيه ، سواء كان في الشرق أو الغرب ، أو الشمال أو الجنوب ، ألا وهو سماحة أستاذنا أبي الحسن علي الحسيني الندوي الذي لحق بالرفيق الأعلى في آخر يوم من القرن الذي مضى ، فكان رجل القرن ، كان للجميع وكان الجميع له ، تعالوا نقرأ له كلمة يقول عن دمشق :

"لقد كانت الإقامة لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر ، وأطيب

ساعاته ، لم تصف لي ولم يتم السرور والأنس (غير الحرمين الشريفين) في أي مكان آخر ، فقد كان مزيجاً من تفتح القلب وانسراح الصدر ، والصحة البدنية ، وجمال الطقس ولطفه ، وحب الأصدقاء ، وحفاوتهم البالغة ، وجمال البلاد الطبيعي ، والروحانية الخاصة التي كانت لأجل أنها مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والأولياء الكبار والصالحين ، ومركز الفتوحات الإسلامية ، كان المزيج من كل ذلك أنشأ جواً عجيباً من السرور واللذة والمتعة ، وكان ذلك العهد عهد الهدوء والسكينة والرخاء ، وعهد (الإسلامية) لأهل دمشق ، وأهل الشام كلهم أيضاً ، ثم بدأت هناك دوامة الثورات والانقلابات ، فلم يقر لها بعد ذلك قرار ، ولا استحكم لها بنيان ، وقد وقع بعد ذلك ما يعرفه الجميع من محنة الإسلام فيها ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً" .

(ص/٢٦٤-٢٦٥ في مسيرة الحياة)

كان قد أتتحت للشيخ أبي الحسن علي الندوي فرصة زيارة بغداد ، عاصمة العراق القديمة العريقة بعد عودته من دمشق ، كانت زيارة خاطفة ، يقول عنها :

"سافرت في يوم من أيام يوليو من دمشق ، واخترت من دمشق طريق بغداد ، إذ أنني لم أكن قد زرت بغداد من قبل ، و أن أول اسم لمكان - بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة - شرفهما الله تعالى قرع أذني أيام صباي الأولى كان اسم بغداد ، فقد كنا نقرأ (القاعدة البغدادية) وهو كتاب صغير للتعريف بالحروف الهجائية ، والتمرين على استعمالها ، وكنا نسمع بيتاً من شعر حالي ، يقول فيه :

تلك البلدة التي كانت تحكم البر والبحر ، وأولئك الأبطال الذين ارتجت بهم البلاد ، وسمعت أصداءهم في الدول والحكومات ، ينامون النوم الأخريرة في مقابر بغداد" .

(ص/٢٦٦ في مسيرة الحياة)

و زار السودان والتقى مع شخصيات في هذا البلد الكريم ، فقال :

د محمد اجزاء الندوي

"أقمنا في الخرطوم البحري عشرة أيام ، وكانت أيام رمضان والحر شديد ، ولكننا حاولنا جهدنا في انتهاز هذه الفرصة الطيبة للإقامة القصيرة ، وقد كانت لقاءات غنية طويلة مع أعيان السودان وكبار رجالها ، وتحدثت معهم عن تجاربنا في الهند ، ونبهت إلى مسئوليات هذا الشعب العربي المسلم المليئ بالحيوية والنشاط الذي لا يزال يحمل كثيراً من الأخلاق والسمات الإسلامية العربية ، ولكنه تحت نفوذ مصر العلمي والسياسي وتأثيرها والإمكانات الكبيرة للدعوة الإسلامية في إفريقيا والمستقبل الزاهر ، وصرحت بأن السودان وإفريقيا - بصفة عامة - تستطيع أن تلعب دوراً خطيراً كبيراً في تاريخ العالم ، وقد لعبت كل قارة دورها واستنفدت طاقاتها وصلاحياتها وأفرغت جعبتها ، وقد بقيت إفريقيا وحدها ، فإذا تبنت الدعوة الإسلامية في إخلاص وحماس ، واحتضنت رسالة العصر التي يحتاج إليها العالم المعاصر ، فإن الله سوف يبوئها منصب القيادة في الدعوة الإسلامية في إفريقيا ، ثم في العالم الإسلامي ، ولكن ذلك لا يتيسر إلا إذا عرف الإخوان السودانيون قيمتهم ومكانتهم ووضعوهما في مكانهما اللائق".

[المسيرة : ص ٢٣٥-٢٣٦]

لا يسعني المجال الآن إلا هذه الكلمة الوجيزة والسرد العابر لشخصيات وانطباعاتهم عن الأسفار والرحلات التي قاموا بها من الهند إلى البلاد العربية سواء للحج والزيارة أو الرحلة والسياحة للبلاد الواسعة من الخليج إلى المحيط ، وهي حديث الحب والأنس ، وحديث المتعة واللذة ، وحديث الاجتماع والمدنية والثقافة ، والعلم والمعرفة ، ونهضة هذه البلاد ورفيها وغوها ، وخدماتها ومكارمها ومآثرها .

وللحديث صلة وسأكملة في الحلقة القادمة ، وسيكون التركيز على رحلات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى وانطباعاته عن العالم العربي والإسلامي خاصة - بإذن الله تعالى - .